المكانة الادبية لفيرجيل شاعر اللاتينية كما نراها نحن وكما يراها النقاد

للدكتور حسن عون

لم يحظ بالشهرة أحد من شعراء العالم قديما بمثل ماحظى هوميروس ، شاعر اليونانية ، وفيرجيل شاعر اللاتينية . هذه حقيقة ينبغى أن نتقدم بها البحث ، ونقررها أولا قبل أن نبحث عن مصدرها ونتعرض لمناقشتها . بل آننا لا نبالغ حين نقول ان شهرة فيرجيل بالنسبة لشاعر اليونانية كانت أبعد مدى وأعمق أثرا : أبعد مدى لأنها لم تجعل منه شاعرا ممتازا فقط ولا شاعرا انسانيا فقط بل جعلته نبيا من أنبياء الشعر يتحدث عن المستقبل فلا تكذبه الاحداث كما سيتبين ذلك بعد قليل ، وأعمق أثرا لان كل من جاء بعده من شعراء اللاتينية حتى العصور الوسطى ، بل وكثيرا من شعراء العصر الحديث يعتبرون تلامذة له وعالة عليه .

كانت شهرة فيرجيل مبكرة ، اذ أنه بدأ يسترعى الانظار وهو لا يزال تلميذا فى مدرسة Grémone ، ثم انه حين أحس ، وهو الفقير النشأة والرقيق الحال ، بأن المنطقة كلها التى نشأ فيها تضيق بشهرته وبما كان يعنى به نفسه من مكانة أدبية رفيعة ، لم يتردد فى الذهاب الى روما ، عاصمة العلم والسياسة والادب .

وهناك فى هذه المدينة الصاخبة وفى ذلك الوسط الزاخر بأعلام الادب والشعر لم تتعثر شهرة فيرجيل بالرغم من ضعة أصله ومن صغر سنه ، بل درس على أكبر الاساتذة واتصل برجال الحكم وبرز فى ميادين الادب ولم يمض عليه سوى بضع سنوات حتى وقف فى مسرح العاصمة ينشد الناس من شعره فصفقت له روما بأسرها ونادى به الشعب زعيم الشعراء وهو لم يتجاوز نيفا وعشرين سنة «[1]»

---

(١) هذا ماذكره المؤرخ اللاتينى P. Cornelius Tacitus فى مقدمة كتابه Dialogus de oratoribus . وكذلك Suétone. Donat فى الفصل ١٣ من كتابه عن فرجيل . وكذلك Servius فى الفصل ٦ من تعليقه على Bucoliques

ومنـذ تلك اللحظة يتسابق رجال السياسة فى التقرب اليـه وفى بذل ما يستطيعون من وعود وأموال لكى يعتنق مبادئهم ويستخدم داعيـة من دعاتهم • وأخيرا نجح أنصار الامبراطور أوغسطس فى أن يجتـذبوه اليهم ويكلوا اليـه رسالة روما السياسية والاجتماعية يقف نفسه عليها ويسخر ملكاته الشعرية فى الدعوة اليها •

أصبح ڤيرچيل بعد أن احتضنته السياسة شاعر الشعب الرومانى بأسره يقول فتردد صدى قوله مدن ايطاليا كلها ، ويدعو الى الاصلاح المنشـود فيتغلغل صدى تلك الدعوة فى أعماق الريف ، الا أنه قد أصبح أيضا منذ ذلك الحين لا يعمل الا بوحى من السياسة وبالهام من رجال الحكم ، فنراه ينظم ديوانه Bucoliques بوحى من Pollion وديوانه Georgiques بوحى من Maecenas وأخيرا ملحمة « Enéide » بوحى من الامبراطور أوغسطس «[1]» •

وفوق ذلك فقد بلغ من أثر السياسة عليه أن استباح لنفسه التنكر لبعض أصدقائه الذين آزروه فى أوقات محنته «[2]» • ولنترك هذه المسألة جانبـا وندعها لمن يريد أن يدرس أثر السياسة فى الأدب وما ينبغى أن يكون عليه موقف الاديب بالنسبة لرجال الحكم •

لم نعثر فى تاريخ الادب اللاتينى ولا فيما تركه الكتاب اللاتينيون على نص يفهم منه أن واحدا من الشعراء المعاصرين لڤيرچيل كان ينافسه الشهرة

---

(١) يروى أن Pollion اقترح على ڤيرچيل ان ينظم ديوانا فى الشعر خاصا بحيـاة الرعاة على نمط ديوان شاعر يونانى من جزيرة صقليـة يسمى Théocrite وأن Maecenas اقترح عليـه نظم ديوان خاص باعمـال الفلاحة ، وان اوغسطس اقترح عليـه نظم ملحمة فى تاريخ الشعب الرومانى فلبى الشاعر كل ما طلب •

(٢) اشارة الى Cor. Gallus الذى كان من اصدقاء ڤيرچيـل حينما تولى هذا ولاية مصر ونزع الى الاستقلال بها غضب عليـه اوغسطس فانتحر وكان ڤيرچيل قد كتب ثناء عن هذا الصديق فى ديوان Géorgiques ولكن بعد هذه الحوادث حذف من الديوان هذا الجزء واستبدله بموضوع آخر

أو يساميه فى المكانة الادبية ؛ ومعنى هذا أن الكل كان يعترف له بالاولوية فى الشعر ويسلم له أمر الزعامة فيه. ولذا فقد استمر طول حياته محاطا بهالة من الاحترام وموضعا للتقدير من جميع الطبقات : أما رجال السياسة فكانوا يرون فيه الداعية المسموع الكلمة ، وأما رجال الادب فكانوا يرون فيه الشاعر الانسانى الفنان ، وأما طبقات الشعب فكانوا يرون فيه الشاعر القروى المؤمن . ولقد ظهر أثر ذلك كله بعد الموت مباشرة ؛ ولعل أول مظهر من ذلك هو ما أبداه الامبراطور أوغسطس من الحرص الشديد على نشر ديوان Enéide دون أن تضاف اليه كلمة ولا أن يغير فيه موضع بيت من الشعر مهما كان فيه من اضطراب ومهما بدا عليه من نقص فى بعض الابيات، وذلك بالرغم من وصية الشاعر نفسه بأن يحرق هذا الديوان بعد موته«(١)».

ولم يكد ڤيرچيل يتوارى عن الانظار حتى أصبحت دواوينه الثلاثة ميدانا للبحث بين العلماء والادباء ، وموضوعا للدرس بين الاساتذة والطلاب فالادباء اتخذوها مثلا أعلى لفن الشعر ينهجون نهجها فى الافكار والمعانى ، ويقلدونها فى كثير من الالفاظ والتراكيب «(٢)» . والنحاة اتخذوها مثلا أعلى فى نقاء اللغة وجمال الاسلوب يبنون كثيرا من قواعدهم عليها ويستمدون أمثلتهم منها . وأما الطلاب فقد اتخذوها مثلا أعلى كذلك فى سهولة المعانى مع فخامة الالفاظ ، وفى عذوبة الموسيقى مع صحة الاوزان الشعرية يحفظون منها ما يقوم لسانهم . ثم يعيدون من محفوظهم فى مختلف المناسبات ما يقوى حجتهم ، ويزين أحاديثهم . بل أن هذا النزوع الى تقدير الآثار الشعرية لڤيرچيل قد ظهرت بوادره وهو لايزال حيا ، اذ قررت دراسة ما ظهر منها ضمن ماكان يدرس فى المدارس للطلاب «(٣)» .

---

(١) انظر ما كتبه Suetone-Donat فى الفصل ٣٩ من كتابه عن ڤيرچيل ، وكذلك ماكتبه Servius عن حياة ڤيرچيل ، ثم ما كتبه فى هذا الموضوع Fredric Plessis فى كتابه La poésie latine ص٢١٩ — ٢٢٠

(٢) كثير هم الشعراء المقلدون لڤيرچيل ، وهم يختلفون فى درجات التقليد ولعل اخصهم فى هذا هو الشاعر Silius Italicus اللذى عاش فى ايام حكم الاباطرة وقد لعب دورا سياسيا هاما تحت حكم Vespasien Néron

(٣) انظر Histoire illustrée de la lit.- latine للاستاذ Jules Humbert ص ٢٠٢

وهكذا أصبحت آثار ڤيرچيل قرآنا بالنسبة للغة اللاتينية ، اذ أنها بواسطة ما كان يحفظ منها منعت هذه اللغة من الانحلال ، وحفظت لها سلامتها وبقاءها بالرغم مما أصاب الشعب الرومانى من تدهور واضمحلال ومما تعرضت له اللغة نفسها من ضعف نتيجة للصراع اللغوى مع الشعوب الاخرى .

ولقد بقيت هذه الآثار محتفظة بما فيها من حيوية وبما لها من مكانة أدبية أثناء العصور الوسطى ، بل لقد زاد من هذا ذلك المظهر الروحى الذى بدأ الناس يحيطون به ڤيرچيل ، فكانوا اذا أرادوا الاقدام على أمر أو اكتشاف ما يخبئه الغد لجئوا الى دواوين ڤيرچيل ففتحوا منها صفحة عن طريق الصدفة ثم قرؤوا أول بيت من الشعر ، وما يدل عليه ذلك البيت كان بالنسبة لما يستوضحونه بشيرا أو نذيرا . وهذا المعنى هو ما يشير اليه ذلك الاصطلاح : sortes virgilianae الحظوظ أو الاقدار الڤيرچيلية » .

ولقد دعم المسيحيون فى العصور الوسطى هذا المعنى حينما جعلوا من ڤيرچيل شاعرا متنبئا ، اذ أنه بشر بالمسيح قبل مولده ؛ ذلك أن الشاعر فى القصيدة الرابعة من ديوانه Bucoliques الذى نظمه فيما بين سنة ٤٢ و ٣٧ قبل الميلاد ، يتحدث عن مولد طفل يحكم الدنيا ويعيد الى العالم السلام ويكون عهده ايذانا بعودة العدل الى الارض ، والعصر الذهبى الى الانسانية كلها . ولم يعرف على وجه التحقيق حتى الآن ماذا كان يقصده الشاعر من ذلك الطفل ، وقد اختلفت وجهة نظر العلماء والباحثين فى ذلك المقصود ولكن يعنينا أن نسجل هنا وجهة نظر المسيحيين لنرى الى أى حد كان ڤيرچيل يتمتع بالشهرة أثناء العصور الوسطى ، والمسيحيون كثرة لا قلة ، ولم يكن ذلك فى الغرب وحده ولكن فى الشرق أيضا .

ثم اذا أشرفنا على العصور الحديثة رأينا الشاعر ينعم بمثل ما كان ينعم به من شهرة ومكانة أدبية فى العصور القديمة والوسطى ، ورأينا آثاره

الادبية كذلك تحتفظ بما كان لها قديما من حيوية وعظمة وتقدير ، فها هو ذا دانت Dante «(١)» صاحب ـ المسرحية الالهية ـ La Divine Comédie يقتفى أثر ڤيرچيل فى ميدان الشعر ويتخذه أستاذا فى تخير الالفاظ ، وسعة الخيال ، واتقان الصور الفنية ؛ ثم أنه فى مسرحيته هذه يتخذه هاديا ومرشدا فى زيارته للدار الآخرة كما تصورها ، وهو فى تصويره لها يستمد ، من غير شك ، كثيرا من أفكاره وأوصافه من تلك الصورة الرائعة التى رسمها للجحيم ڤيرچيل فى جزء من أجزاء ملحمته Encide .

وكلما تغلغلنا فى العصور الحديثة مقتربين من القرن العشرين وجدنا مكانة الشاعر اللاتينى تسمو ، ومجده الادبى يزيد مع الزمن ، فيتجه الغرب الى العناية به ودرس شعره ، ويتسابق الناس على حفظ آثاره والاقتباس منها ، ولا توجد جامعة من جامعات الغرب دون أن يكون ڤيرچيل هو أساس الدراسات القديمة فيها ؛ ولا يكاد يوجد مثقف من مثقفى الغرب دون أن يكون قد عرف شيئا عن ڤيرچيل وعن آثاره الشعرية .

وهكذا أصبح ڤيرچيل هدفا لانواع عديدة من الدراسات ، ومنهلا للمثقفين من العلماء والادباء فالمؤرخون ومن يعنيهم أمر الدين عند القدماء يجدون فى آثاره دائرة معارف ، والأدباء الكلاسيكيون يتلمسون فيها المثل الاعلى لجمال الذوق ، وحسن السبك ، وعذوبة المعنى ، ونبل الافكار ، والرومانطيقيون يدهشهم ما يجدونه فيها من تلك العاطفة الحزينة ، ومن ذلك الخيال الحالم ، ومن هذا الحب العنيف للطبيعة وما تتجمل به من سهول وغابات وأنهار وجبال .

---

(١) يعتبر Dante شاعر ايطاليا العظيم فى أثناء القرن الرابع عشر ، ولد سنة ١٢٦٥ ومات سنة ١٣٢١ م . وأثره الادبى الخالد هى تلك المسرحية الالهية Divine Comédie وهى تنقسم الى ثلاثة فصول : الاول يتناول وصف الجحيم والثانى يتناول وصف الاعراف أو دار التطهير من الخطايا والثالث يتناول وصف الفردوس .

وان الاحتفال الذى أقيم فى سنة ١٩٣٠ ميلادية لمناسبة مرور ألفى عام على مولد ڤيرچيل ليعتبر دليلا بينا على أن شهرة الشاعر اللاتينى لم تنقطع ، وأن عناية الناس به وبآثاره لم تضعف ولقد صوره الادباء فى هذا الحفل كالعنوان البارز للادب اللاتينى ، والممثل الاول للفكرة اللاتينيـة ، والمعبر الصادق عن روح الشعب اللاتينى ، ولذا فقد كان هذا الحفل عيدا للاتينية كلها ممثلة فى شاعرها الكبير «[1]» .

وهناك ظاهرة أخرى بعيدة الدلالة على ما كان يحفظه الشعب الرومانى لڤيرچيل من مكانة أدبية سامية وما يكنه لى من قداسة واحترام ، ذلك هو موقف الرومانيين منه بعد الموت ونظرتهم الى مقبرته ، فقد كادوا يتخذونه الها تقرب له القرابين ، ويجعلون من قبره معبدا تهرع اليه الناس بالدعوات. مكانة لم تتوفر لشاعر من قبله ، ومنزلة لاتقل عن منازل القديسين . وهاهى ذى أمارات ذلك التقدير :

مات ڤيرچيل فى Brindes ونقل رفاته الى نابل ، ثم دفن فى ضواحى هذه المدينة على الطريق الى Pouzzoles سنة ١٩ قبل الميلاد ، وفى القرن الاول بعد الميلاد نقرأ وصفا لهذه المقبرة فى شعر Statius حيث يقول انها ليست مقبرة ولكنها معبد «[2]» .

وهناك شاعر لاتينى آخر ، هو silius italicus كان كثيرا مايفخر بأن المقبرة التى تضم رفات ڤيرچيـل تقع فى ممتلكاته ويذهب فى تقديسه لهذا الرفات الى درجة أن يقدم لهذه المقبرة فى كل سنة قربانا «[3]» .

هذه صورة عاجلة لمكانة ڤيرچيل الادبية أثناء حياته وبعد موته ، وعرض سريع لما حظيت به آثاره من العناية والدرس فى العصور القديمة، والوسطى

---

(١) انظر Histore illustrée de la litt. latine لمؤلفه Jules Humbert ص ٢٠٢

(٢) البيت ٥٤ من المقطوعة الرابعـة فى الـكتاب الرابع من ديوانه « شعر المناسبات » : Silves, IV, 4, 54

(٣) J. Humbert - Hist. illustrée de la lit. latine. page 179 et poge 297.

والجديدة وقد تحاشينا فيها ، ما أمكن ، الاطالة بضرب الامثلة وذكر النصوص واكتفينا بسرد الحقائق مجردة عن الاطناب .

وبعد فما هو سر تلك العظمة ؟ وبأى الوسائل استطاع ڤيرچيل أن يكون لنفسه هذه المكانة الادبية الخالدة ؟ وما هو مصدر ذلك التقدير الذى ناله من طبقات الشعب الرومانى على اختلافها : تقدير من الطبقة الحاكمة ، تقدير من الطبقة المثقفة ، تقدير من الطبقات البسيطة ما بين زراع ، وصناع وملاك صغار ؟ هذه هى الاسئلة التى يعنينا أن نجيب عنها الآن ، وقد كنا فى أثناء اطلاعنا على الآثار اللاتينية لا نملك الا الدهشة لما نجده فى ميادين الثقافة اللاتينية من اجماع على تقدير ڤيرچيل والاشادة باسمه ، والتغنى بآثاره . وفى الاجابة عن هذه الاسئلة سنحاول جهدنا أن نعبر عن احساسنا الخاص ، وتقديرنا الشخصى اللذين — نبيح لانفسنا أن نقول — اكتسبناهما نتيجة اطلاع عشر سنوات متوالية لا فى دائرة الادب اللاتينى وحده ، ولكن فى دائرة المعارف اللاتينية كلها من لغة وميثولوچيا ، وفلسفة ، وتاريخ ، وقانون .

لم يكن ڤيرچيل ملهما ، ولا نبيا كما ذهب بعض المسيحيين فى العصور الوسطى ، وأمر الطفل الذى تحدث عنه لا يعدو أن يكون جولة من جولات الخيال عند الشعراء ، وما ينبغى للبحث العلمى أو النقد الادبى أن يتقيد بمثل هذا ، ولا أن تكون مكانة الشاعر الادبية مستمدة من مثل ذلك الخيال . ولكنها النزعة الدينية عند رجال الدين الذين يريدون أن يروا أثرها فى كل شىء وأن يتبنوا من أجلها كل عظيم .

لم يكن ڤيرچيل أيضا مفطورا على قول الشعر حتى يغدو ما لكا لزمامه متصرفا فى أمره ، ولكن كان هو نفسه ملكا للشعر يسخر له احساسه ، وعواطفه ، وخياله ، وكل مالديه من معارف ، وطريقته فى نظم الشعر تصوره صانعا لا مفطورا .

نظم فيرجيل أكبر وآخر ديوان له فى الشعر ، وهو ملحمته Eneide . فى خلال عشر سنوات تقريبا ، من سنة ٢٩ الى ١٩ قبل الميلاد ، وقبل أن يبدأ فى النظم وضع هيكل الملحمة وكتبها نثرا ، ثم أخذ ينظم هذه الافكار ، وبعد عشر سنوات فى سبيل النظم والمراجعة والتهذيب والاصلاح لم يستطع أن يفرغ من الملحمة بالطريقة التى يطمئن اليها ويرضى عنها . ولهذا فقدرغب فى احراقها قبل موته ولما تعذر عليه الحصول عليها أوصى بأن تحرق بعدموته ولولا حرص الامبراطور أوغسطس على هذه الملحمة ، وعنايته بها أو رفضه لتنفيذ وصية فيرجيل لحرم الادب اللاتينى من أجل أثر فيه • ولكن حينما جمعت نصوصها ونشرت كما هى دون زيادة ولا اصلاح وجد فيها ٥٧ بيتا من الشعر لم يكن قد انتهى من اكمالها وصوغها •

وكذلك الامر فى ديوانيه الآخرين . اذ أنه نظم Bucoliques فى المدة المحصورة بين سنة ٤٢ ، سنة ٣٧ قبل الميلاد ، مع أن الديوان جميعه لايزيد عن ٨٣٠ بيتا من الشعر •

أما ديوانه الثانى Georgiques فقد نظمه فى المدة بين سنة ٣٧ ، ٣٠ قبل الميلاد وهو لايحتوى على أكثر من ٢١٨٧ بيتا من الشعر •

المسألة اذن واضحة لا تحتاج الى تفصيل أكثر ولا الى تعليل آخر لكى نثبت أن فيرجيل لم يكن مفطورا على قول الشعر يقوله دون تكلف وينظمه دون عناء ، وانما تعلم أسسه ، ومارسه ثم سخر نفسه فى صنعته حتى برع فيها الى درجة لايسمو اليها سواه ، وهذا فى الواقع سر عظمته الادبية كما سنشرح ذلك بعد قليل •

لم يكن فيرجيل أيضا من ذوى العبقريات الخالقة فينعكس على نفسه يعيش بحسه أو يتجول فى عالم من احساس المجتمع الذى يحيط به فتترامى اليه موضوعات الشعر وينتج بوحى من نفسه ، ولكنه كان واحدا من أولئك الشعراء الذين لايعملون الا بوحى من غيرهم ، وشاهد ذلك أنه نظم ديوانه Bucoliques بارشاد Pollion فهو الذى وجهه الى هذا النوع

من الشعر ، وطلب اليه أن ينظم للشعب الرومانى ديوانا من الشعر على نمط ديوان الشاعر اليونانى الصقلى Théocrite وكذلك ديوانه Géorgiques كان بتوجيه ووحى من Maecenas وأما ملحمته Enéide فكانت تلبية لرغبة الامبراطور أوغسطس «(١)» .

لم يكن ڤيرچيل اذن متصفا بواحدة من هذه الصفات التى كثيرا ما هيأت لاربابها من الشعراء سبيل الخلود الادبى ؛ ولكنه مع ذلك قد أخذ لهذا السبيل عدة أخرى شق بها طريقه ، ووصل بواسطتها الى غايته : ذلك أنه كما نراه نحن ، كان شاعرا فنانا . واذا وصفناه بالفنان فانما نعنى بذلك أوسع معنى تتحمله كلمة الفن ، ومن هنا فقط كانت عظمته فى الشعر .

كان ڤيرچيل مرهف الحس ، جميل الذوق ، نبيل العاطفة ، انسانى الادراك ، واسع الخيال ، قوى البيان وهو مع ذلك قد طبعت نفسه على الحزن ، تستثيره المآسى ؛ لانها قسم مشاع بين الكائنات ، ولا تهيجه الافراح لانها حظ بين الطبقات . وقد تمكنت منه كل هذه الصفات حتى استطاع أن يسخرها طوعا فى خدمة فنه .

---

(١) يضاف الى هذا ان كثيرا من افكاره ، ومعانيه ومناظره الطبيعية التى وضعها فى هذه الدواوين ، ماخوذ من الشعراء اليونانيين الذين قرأهم وأراد تقليدهم ، ومصادره فى ذلك معروفة مشهورة .
انظر Fredric Plessis- la poésie latine p. 217 و J. Humbert : Hist. illustrée de la Lit. Latine, p. 178—196.